خديجة بنت خويلد

عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة يقول: «أرسلوا إلى أصدقاء خديجة . . قالت: فذكرت له يوما فقال: إنى لأحب حبيبها».

● خديجة في الجاهلية

هي خديجة بنت خويلد بن عبد العزى بن أسد القرشية الأسدية الصدِّيقة الكبرى، والأم الأولى للمؤمنين، والزوج الأولى للرسول الكريم، وأم أولاده جميعاً إلا إبراهيم.

كانت في الجاهلية تحت أبي هالة بن زرارة التميمي، وقد مات عنها، بعد أن ولدت له هنداً الذي آمن بالرسول وصحبه وشهد معه بدراً، كما ولدت له هالة بن أبي هالة وكان له صحبة أيضاً.

وبعد موت أبي هالة تزوجها عتيق بن عابد المخزومي فولدت له بنتاً اسمها هند ، لها إسلام وصحبة ، ثم خلف عليها بعد عتيق سيد الأزواج محمد بن عبدالله .

وكانت خديجة تُدعى في الجاهلية : الطاهرة لشدة عفافها وصيانتها ، ويصفونها بسيدة نساء قريش .

• خديجة التاجرة

كانت خديجة امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها ، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم ، وكانت قريش قوماً تجاراً .

وفي جلسة بين أبي طالب ومحمد ابن أخيه قال له : ياابن أخي ، أنا رجل لا مال لي وقد اشتد الزمان علينا ، وألحت علينا سنون منكرة ، وليس لنا مادة ولا تجارة ، وهذه عير قومك ، قد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجة تبعث رجالاً من قومك يتجرون في مالها ويصيبون منافع ، فلو جئتَها لفضَّلتكَ على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك .

فقال محمد عليه السلام : لعلها ترسل إليَّ في ذلك .

فقال أبو طالب : إني أخاف أن تولي غيرك .

وبلغ هذا الحوار بين محمد وعمه إلى خديجة ، فما كان منها إلا أن أرسلت إليه لما عرفت عنه من الصدق والأمانة، وحسن السمعة ، وعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، مع غلام لها يقال له « ميسرة» فقبل رسول الله منها، وخرج في مالها ذلك ، ومعه غلامها ميسرة إلى الشام .

● شريكة التجارة تصبح شريكة الحياة

عاد محمد من الشام بربح وفير لم تحصل عليه خديجة من قبل ، وعاد إليها غلامها بحديث أوفر من الربح عن هذا الرفيق الكريم وما رأى ولمس فيه من سمو الأخلاق وعجيب الآيات .

وهفا قلب خديجة إلى محمد أن يشركها في الحياة كما شركها في التجارة فإنه رجل نادر المثال حقاً ! !

شاب ، وليس فيه عبث الشباب ، تاجر ، وليس فيه جشع التجار ، فقير ، وليس فيه ضعة الفقراء ، قرشي ، وليس فيه زهو قريش .

إن الرجال اعتادوا أن يخطبوا النساء ، فكيف تخطب المرأة الرجل ؟

هذه هي المشكلة ، ولكن خديجة تحلها عن طريق صديقتها نفيسة أُخت يعلى بن منبه .

أرسلتها خديجة دسيساً إلى محمد ، فقالت له : ما يمنعك أن تتزوج ؟

قال : ما في يدي شيء .

قالت : فإن كُفيتَ ودُعيتَ إلى المال والجمال والكفاءة ؟

قال : ومن ؟ قالت : خديجة ، قال : وكيف لي بذلك ؟ قالت : عليَّ ذلك .

فسارع الرسول إلى إعلان قبوله ، وذهبت نفيسة إلى خديجة فبشرتها بنتيجة هذا الحديث ، ولم تلبث خديجة أن

حددت الموعد الذي يلتقي فيه محمد وأعمامه بأهل خديجة ، فذهب الرسول ومعه عمَّاه أبو طالب وحمزة وخطبوا خديجة من عمها عمرو بن أسد ، وكان صداقها عشرين بكرة ، وكانت سنها أربعين سنة وكان هو في الخامسة والعشرين على أشهر الأقوال .

• زواج مثالي

لقد كان من الميسور لمحمد بن عبدالله أن يتزوج فتاة من أبكار قريش ، بدل هذه الثيب التي تزوجت مرتين ، وبلغت الأربعين أو جاوزتها ، وأوشك وجهها أن يتجعد ، وشعرها أن يشيب .

لو كان من عشَّاق الجسد وطلاَّب الشهوة لكان له في الأبكار الصغار متسع ، وهو الفحل لا يُقدع أنفه ، والقرشي الهاشمي لا تُرد خطبته ، وله من قوة شخصيته ، وحسن سمعته ووسامة طلعته ، وشهرة أُسرته ، ما يزيل العقبات ، ويمهد السبيل .

ولكنه كان ينشد العقل الرشيد ، والقلب الكبير ، فوجدهما في خديجة .

وكان أمام خديجة - وهي يومئذ أوسط نساء قريش نسباً، وأعظمهن شرفاً، وأكثرهن مالاً - من عظماء قريش وأثريائها مَنْ يتمنى زواجها، ومَنْ أرسل إليها يخطبها، ولكنها رغبت عنهم جميعا، شعرت بأنهم يخطبون مالها لا شخصها، يخطبون خديجة الغنية لا خديجة الإنسان.

ردت خديجة يد أشراف قريش، ولم تجد حرجاً أن تعرض نفسها - بواسطة أو بغير واسطة - على الشاب الفقير الذي يعمل في تجارتها، إنها وجدت في محمد ضالتها، فاختارته بقلبها الملهم، وإنما اختارت لنفسها - في الحقيقة - الخلود، ودخلت التاريخ من أوسع الأبواب.

ومن أولى بمحمد من خديجة؟ وأولى بخديجة من محمد؟ إن المرأة التي يلقِّبونها بالطاهرة أولى بالرجل الذي يُلقِّبونه بالأمين ﴿ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ (النور: ٢٦).

وكان زواجاً سعيداً موفقاً لم تغم سماؤه يوماً من الأيام، ولم يعكر صفوه افتتان المرأة الغنية بمالها، ولا اعتداد الشاب الفتي بشبابه، بل كان شبابه كله لها، وكان مالها كله

له ، يبذل منه ما يرى في صلة الرحم ، ووجوه البر ، وصنائع المعروف .

أصابت الناس سنة جدب فجاءت حليمة السعدية مرضعة الرسول إليه فأكرم وفادتها ، وعادت من عنده ومعها من مال خديجة بعير يحمل الماء ، وأربعون رأساً من الغنم .

وكانت خديجة أول امرأة تزوجها رسول الله ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت رضي الله عنها .

وقد ولدت له أولاده كلهم ، إلا إبراهيم : ولدت له من الذكور : القاسم وهو أكبر بنيه ، وبه كان يُكَنَّى بعد البعثة ، وعبدالله ويُلقَّب بالطيب والطاهر ، ومن الإناث : رقية ثم زينب ثم أم كلثوم ثم فاطمة أصغر بناته .

فأما القاسم وعبد الله فماتا في الجاهلية ، وأما البنات فقد أدركن الإسلام وهاجرن معه عليه السلام ، وقد كان يتوقع من خديجة أن يهلع فؤادها لموت أبنائها من رجل

تحبه في عصر كانت تُوأد فيه البنات ولكنها كانت دائماً مثال العزم الراسخ والإيمان الصَبور .

• خديجة المؤمنة

ثلاث نسوة بارزات في حياة الرسل الثلاثة أصحاب الديانات الأخيرة الكبرى : آسية امرأة فرعون في حياة موسى ، ومريم ابنة عمران في حياة عيسى ، وخديجة في حياة محمد عليه السلام ، كل واحدة منهن كفلت نبياً مرسلاً قبل بعثته ، وأحسنت الصُحبة في كفالته ، وصدَّقت به بعد رسالته ، لهذا جمع الرسول بين هؤلاء الكوامل في عقد واحد فقال : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنته عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد » .

وإذا كان بعض الحكماء يقول :« إن وراء الرجل العظيم امرأة تشد أزره . أماً كانت أو زوجاً » فقد كانت خديجة المرأة التي وراء محمد عليه الصلاة والسلام .

أعانته في الجاهلية على حياته الطاهرة النقية البعيدة عن الأوثان والخمر والميسر واللَّغو والشهوات ، وكانت له ظهيراً في حياة التجرد والتأمل والبُعد عن صخب الناس وضوضاء الحياة .

كانت تُهيئ له الزاد كل عام ليقضي شهر رمضان في غار حراء، ولو كان الأمر لعاطفتها المجردة ما رضيت ـ كامرأة ـ أن يغيب عنها ليلة واحدة ، فكيف بالليالي ذوات العدد ؟

ولكنها تحس أن زوجها غير الرجال ، وأن له شأناً أي شأن ، فلتكن عونه على مُثله الرفيعة ، وقيمه العليا ، وقد كانت تصحبه أو تزوره أحياناً في هذا الغار وتبقى معه أياماً وليالى تؤنسه وترعاه ، ومن طواعيتها له قبل البعثة ومسارعتها في هواه أنها رأت ميله إلى زيد بن حارثة ـ بعد أن صار في ملكها فوهبته له ، فكانت هي السبب فيما امتاز به زيد من السبق إلى الإسلام .

هذه خديجة في الجاهلية ، وأما بعد الرسالة ، فاستمع إلى عائشة تروي موقفها من الرسول حينما تلقى أول شحنة من وحي السماء في غار حراء ، وغطّه جبريل حتى

بلغ منه الجهد ، فعاد إلى خديجة ترجف بوادره يقول : زملوني ، زملوني ، لقد خشيتُ على نفسي . . . .

ولم تكن خديجة ممن يطير لبها فزعاً ، ولم يكن هذا الطارئ العجيب الغريب ليذهلها عن سداد الرأي ، ومنطق الحكمة ، لقد عرفت بنور بصيرتها وسلامة نظرتها سنة الله في معاملة عباده فقالت لزوجها في ثقة ويقين : كلا والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَل ، وتكسب المعدوم ، وتصدق الحديث ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الدهر .

وفي رواية قالت له : أبشر واثبت يا ابن عم ، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة .

ولم تكتف بالقول ، بل صحبته إلى ابن عمها ورقة ابن نوفل ـ وقد كان امرءاً تنصَّر في الجاهلية ، وعرف العبرانية ، وكتب بها من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب ـ فقالت له خديجة : أى ابن عم ، اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقة : يا ابن أخى ما ترى ؟ فأخبره رسول الله خبر ما رأى .

فقال له ورقة : هذا الناموس الذي أنزله الله على موسى .

وهكذا كانت خديجة ملاك الرحمة ، والمرفأ الأمين ، والملاذ المكين لمحمد عليه السلام .

كانت أنسه إذا استوحش ، وكنزه إذا احتاج ، وأمله إذا استيأس ، وطمأنينته إذا اضطربت من حوله الحياة .

قال ابن إسحق: كانت خديجة أول من آمن بالله ورسوله، وصدَّق بما جاء به ، فخفف الله بذلك عن نبيه ، فكان لا يسمع شيئاً يكرهه ، من الرد عليه ، والتكذيب له ، فيحزنه ذلك ، إلا فرَّج الله عنه بها إذا رجع إليها ، تُثبِّته وتخفِّف عنه ، وتهوِّن عليه أمر الناس .

شاطرته متاعب الدعوة ، وآلام الرسالة راضية مغتبطة ، دخل الشعب فدخلت معه ، وذاقت مرارة الحرمان وعضة الجوع ، وهي ذات المال الوفير وربيبة الرفاهية والنعيم ، فلا عجب أن يحمل إليها أمين الوحي السلام من فوق سبع سموات !

روى البخاري عن أبي هريرة قال : «أتى جبريل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه طعام ، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها . . ومني ، وبشرها ببيت في الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب»[1].

قال السهيلي : إنما كان البيت بهذا الوصف ، لأنها لم ترفع صوتها على النبي ﷺ ولم تتعبه يوماً من الدهر ، ولم تصخب عليه مرة ولا آذته أبداً .

• وفاة . . ووفاء

في السنة العاشرة من البعثة ، وقبل الهجرة بثلاث سنين شاء القدر الذي يبتلي الناس قدر دينهم أن يختطف من الرسول زوجه الحبيبة خديجة التي كانت له ـ كما قال ابن هشام ـ وزير صدق على الإسلام .

وقبلها بقليل مات ساعده الأيمن عمه أبو طالب ، تلك كانت ملاذه في الداخل ، وهذا كان عضده وناصره في

---

(١) قال ابن هشام : القصب هنا : اللؤلؤ المجوف .

الخارج ، فكان هذا المصاب بعد ذاك جديراً أن يترك في نفس النبي أثراً عميقاً جعله يسمي هذا العام عام الحزن .

ماتت خديجة ولكن ذكراها لم تمت في نفس رسول الله ، لقد ظل وفياً لها طوال حياته : يحن لذكراها ويهش لأهلها ، ويكرم صديقاتها ، حتى إن عائشة أحب أزواجه إليه بعدها لتغار منها في قبرها ، قالت : كان رسول الله لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيُحسن الثناء عليها ، فذكرها يوماً من الأيام فأخذتني الغيرة فقلت : هل كانت إلا عجوزاً قد أبدلك الله خيراً منها ؟

فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ، ثم قال : لا والله ما أبدلني الله خيراً منها ، آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذَّبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، وزرقني الله منها الولد دون غيرها من النساء ! ! قالت عائشة : فقلت في نفسي : لا أذكرها بعدها بسيئة أبداً .

رحمها الله ، ورضِيَ عنها ، وجزاها عن نبيه ودعوته خير ما يجزي الصِدِّيقات . .

* * *